تدبّر القرآن الكريم

حقيقته وأهميته في إصلاح الفرد والمجتمع

أ.د. عبد القادر سليماني.

جامعة وهران، الجزائر.

بسم الله الرحمن الرحيم.

الحمد لله والصلاة والسلام على محمد بن عبد الله، وعلى آله الأطهار وأصحابه الأبرار، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

لا شكّ أن القرآن الكريم، هو كتاب الله –تعالى– ، نزل به الروح الأمين على قلب محمّد ﷺ بلسان عربي مبين، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، تكفّل الله بحفظه، وتعبّدنا بتلاوته وتدبُّر آياته ومعانيه، فقال تعالى : ﴿ **أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ** (٢٤) ﴾ محمد: ٢٤.

جمع الله فيه خيري الدنيا والآخرة، من تمسك به نجا، ومن أعرض عنه فقد ضل وخسر، يقول سبحانه وتعالى: ﴿ **فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ** (١٢٣) **وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ** (١٢٤) **قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا** (١٢٥) ﴾ طه: ١٢٣ - ١٢٥.

وتدبّر القرآن الكريم، والوقوف عند معاني آياته وأحكامه، هو من الأمور المهمّات، وآثاره على جميع المستويات جليّات، إن على مستوى الأفراد أو على مستوى المجتمعات، وذلك في جميع المجالات، **كإصلاح الاعتقاد، وتهذيب الأخلاق، وتشريع الأحكام، وتحديد سياسات الأمة، التي بها يتم صلاحها وحفظ نظامها، اقتصاديا، وثقافيا، وصحيا، وتعليميا، واجتماعيا**...، وكلّ هذه المعاني وغيرها، تدخل ضمن **المقاصد الجامعة للقرآن الكريم،** في تقويم حياة الناس إلى يوم الدين، قال الله تعالى: ﴿ **إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا** (٩) ﴾ الإسراء: ٩.

ولا ريب، أن قيمة القرآن وبركته، تكمل في **تلاوته، وتدبّره، والعمل به،** فما اللفظ وترتيله إلا وسيلةٌ في إدراك المعنى وتحصيلِه، وطلبِ الخشوع، والتأثّرِ به، وترجمةِ هذا التأثّر إلى عمل.

فما **مفهوم تدبّر القرآن الكريم،** وما **حقيقته؟** وما **أهميته في إصلاح الفرد والمجتمع؟**

وللإجابة عن هذا الأسئلة وغيرها، ارتأيت أن أقسم البحث إلى تمهيد وثلاثة مباحث وخاتمة، وجملة من التوصيات.

أما التمهيد: فتناولت فيه تعريف بعض **المصطلحات المفتاحية،** التي لها علاقة بالموضوع، كالتدبّر، والإصلاح.

وأما المبحث الأول: فبيّنت فيه أن الإسلام قد **أمر بتدبّر القرآن الكريم ورغّب فيه**، وذلك من خلال الكتاب والسنّة النبوية.

وأما المبحث الثاني: فتناولت فيه **حقيقة تدبّر القرآن الكريم**.

وأما المبحث الثالث: فتناولت فيه **أهمية تدبّر القرآن الكريم في إصلاح الفرد والمجتمع**.

وأما الخاتمة: فذكرت فيها جملة من **النتائج** التي تضمّنها هذا البحث، وبعض **التوصيات** التي رأيت أنها تفيد موضوع البحث خصوصا، وموضوع المؤتمر عموما.

والله وليّ التوفيق والهادي إلى سواء السبيل.

التمهيد:

التعريف ببعض المصطلحات المفتاحية.

أولا: تعريف التدبّر:

١-معنى التدبّر في اللغة:

الدُّبُرُ والدُّبْرُ نقيض القُبُل، ودُبُرُ كل شيء عَقِبُه ومُؤخَّرُه، وجمعهما أَدْبارٌ، ودُبُرُ كلِّ شيء خلاف قُبُلِه، وهو النظر في عاقبة الأمر والتفكّر فيه، وتدبر الكلام: النظر في أوله وآخره ، ثم إعادة النظر مرة بعد مرة ؛ ولهذا جاء على وزن التفعّل كالتجرّع والتفهّم والتبيّن ؛ ولذلك قيل : إنه مشتق من النظر في أدبار الأمور، وهي أواخرها وعواقبها، ومنه تدبّر القول ،كما في قوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ المؤمنون: ٦٨.(١)

٢-معنى تدبّر القرآن الكريم:

هو تفهّم معاني ألفاظه ، والتفكر فيما تدل عليه آياته مطابقة ، وما دخل في ضمنها وما لا تتم تلك المعاني إلا به، مما لم يعرِّج اللفظ على ذِكره من الإشارات والتنبيهات، وانتفاع القلب بذلك بخشوعه عند مواعظه، وخضوعه لأوامره، وأخذ العبرة منه، وكلّ هذه المعاني حاضرة في أقوال أهل العلم، وعلى رأسهم من المفسِّرين:

قال **الطبري** في قوله تعالى : ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾ ص: ٢٩ ، " أي ليتدبّروا حجج الله التي فيه، وما شرع الله فيه من الشرائع، فيتعظوا ويعملوا به ".(٢)

وقال **أبو بكر ابن طاهر**: " تدبّر في لطائف خطابه، وطالِب نفسك بالقيام بأحكامه، وقلبك بفهم معانيه، وسِرَّك بالإقبال عليه ".(٣)

١- لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، دار صادر – بيروت، ط١، (د ت)، (٤/٢٦٨)، ومختار الصحاح، زين الدين الرازي (١/١٩٦)، والقاموس المحيط، الفيروز آبادي (١/٤٠٢-٤٠٣)، تاج العروس من جواهر القاموس، محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى، الزَّبيدي، (١/٢٨٠٦).

٢- تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، المحقق:سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٢، ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م، (٢١/١٩٠).

٣- لجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي، المحقق: هشام سمير البخاري، دار عالم الكتب، الرياض، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٣م، (١٩/٣٨).

وقال **الهروي**: " أبنية الذكر ثلاثة: الانتفاع بالعِظة، والاستبصار بالعبرة، والظفر بثمرة الفكرة ".(١)

وقال **الألوسي**: " وأصل التدبر : التأمل في أدبار الأمور وعواقبها، ثم استُعمل في كل تأمل سواء كان نظراً في حقيقة الشيء وأجزائه، أو سوابقه وأسبابه، أو لواحقه وأعقابه ".(٢)

ويُستفاد من كلام العلماء في معنى التدبّر، أن التدبر في القرآن يشمل الأمور الآتية:

-معرفة معاني الألفاظ وما يُراد بها.

-تأمُّل ما تدل عليه الآية أو الآيات مما يُفهم من السياق أو تركيب الجمل.

-اعتبار العقل بحججه، وتحرك القلب ببشائره وزواجره.

-الخضوع لأوامره، واليقين بأخباره.

ويتلخّص من ذلك أن **التدبّر**: هو التفكّر، والتأمّل الذي يبلغ به صاحبه معرفة المراد من المعاني، وإنما يكون ذلك في كلام قليل اللفظ كثير المعاني التي أُودعت فيه ، بحيث كلّما ازداد المتدبّر تدبّراً، انكشفت له معانٍ لم تكن بادية له بادئ النظر. (٣)

ثانيا: تعريف الإصلاح:

١-الإصلاح لغة:

الصلاح على خلاف الفساد، والصلاح والصُلوح بمعنى واحد، فهو يصُلح صلاحًا وصُلوحًا، فهو صالح، وصليح، والجمع صُلحاء وصلوح. (٤)

والإصلاح نقيض الإفساد والمِصلحة الصَّلاحُ، والاسْتِصْلاح نقيض الاستفساد، وأَصْلَح الشيءَ بعد فساده أَقامه، وأَصلَحَ الدابة أَحسن إِليها فَصَلَحَت، والصُّلح تَصالحُ القوم بينهم، والصُّلحُ السِّلم، وقد اصطَلَحُوا وصالحوا

١- مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، دار الكتب العلمية، بيروت، (١/١٨٣).

٢- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، محمود الألوسي أبو الفضل، دار إحياء التراث العربي-بيروت، (٤/١٥٠).

٣- التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور التونسي، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت،ط١، ١٤٢٠هـ،٢٠٠٠م، (٢٣/١٤٨).

٤- لسان العرب، ابن منظور، (٢/٥١٦)، التحرير والتنوير، ابن عاشور، (٢/٢١٧)، والقاموس المحيط (١/٢٢١)، والصحاح في اللغة، الجوهري، (١/٣٩٣).

واصَّلَحُوا وتَصالحوا واصَّالحوا بمعنى واحد، وقوم صُلُوح مُتصالِحُون، كأَنهم وصفوا بالمصدر، والصِّلاحُ بكسر الصاد مصدر المِصالَحَةِ.

وقوبل الصلاح في القرآن، تارة بالسيئة، كما في قوله تعالى: ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا ﴾ التوبة: ١٠٢ ، وتارة بالفساد، كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبۡطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٨١ ﴾ يونس: ٨١ ، وهما مختصان في أكثر الاستعمال بالأفعال.

٢-الإصلاح اصطلاحًا:

عرّف العلماء الصلاح بعدة تعريفات وهي:

أن الصلاح: هو سلوك طريق الهدى.

وقيل:هو استقامة الحال على ما يدعو إليه العقل.

وقيل:هو استقامة الحال على ما يدعو إليه العقل والشرع.

وقيل: هو استقامة الأعمال وطهارة النفس. (١

التعريف المختار للإصلاح:

ومن خلال النظر في هذه التعريفات، نجد أنها متقاربة، ويمكن الجمع بينها بتعريف شامل، وهو: أن الصلاح سلوك طريق الهدى، واستقامة الحال على ما يدعو إليه العقل والشرع.

والعلاقة بين المعنى اللغوي والاصطلاحي وثيقة بينهما، حيث يتبين من المعنى الاصطلاحي أن الهدف من الإصلاح هو استقامة الإنسان على طريق الهدى، كما يدعو لذلك العقل والشرع، وهذا ما تبيّن من المعنى اللغوي.

المبحث الأول:

الأمر بتدبّر القرآن الكريم والتّرغيب فيه، من خلال نصوص الكتاب والسنّة النبوية.

لا شكّ أن النصوص الشرعية، جاءت دالّة على الاعتناء بالقرآن الكريم، اعتناء خاصّا، بغرض الانقياد لحكمه، والإقبال على أحكامه، والمشي خلفه، من خلال اتباع منهج خاص، في التعامل مع القرآن الكريم، تلاوة، **وتدبّرا**.

١- ابن عاشور، المصدر نفسه، (٣/١٠٠).

أولا: الأمر بالتدبّر والترغيب فيه، في ضوء القرآن الكريم:

لا شكّ أن القرآن الكريم، قد أشاد بكلّ الألفاظ والصيغ التي جاءت في إطار **التدبّر والتأمّل**، بما يفيد الأمر والترغيب فيه، بلفظ صريح:

كما في قوله تعالى : ﴿ **أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾** ﴾ النساء: ٨٢

وقوله تعالى : ﴿ **كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾** ﴾ ص: ٢٩.

وقوله تعالى : ﴿ **أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾** ﴾ محمد: ٢٤.

وقوله تعالى : ﴿ **أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾** ﴾ المؤمنون: ٦٨.

ومعنى ﴿يتدبّرون القرآن﴾، أي يتأمّلون دلالته، وذلك يحتمل معنيين: أحدهما أن يتأمّلوا دلالة تفاصيل آياته على مقاصده التي أرشد إليها المسلمين، أي تدبّر تفاصيله؛ وثانيهما أن يتأمّلوا دلالة جملة القرآن ببلاغته، على أنّه من عند الله، وأنّ الذي جاء به صادق.[1]

وبألفاظ غير صريحة، تحمل في مضامينها **مفهوم التدبّر**، كالتفقّه، والتعقّل، والتبصّر، والتفكّر، والتذكّر، وغير ذلك من المفردات، والصيغ التي مفادها **التدبّر والتأمّل** في آيات القرآن الكريم:

كقوله تعالى : ﴿ **ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾** ﴾ الأنعام: ٦٥.

وقوله تعالى : ﴿ **إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾** ﴾ النحل: ١٢.

وقوله تعالى : ﴿ **وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾** ﴾ النحل: ٤٤.

وقوله تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾** ﴾ الزمر: ٢٧.

وقد تضمّنت هذه الآيات **وجوب التدبّر**، وقد أشار إلى ذلك الحافظ **ابن كثير** -رحمه الله تعالى- ، حيث قال : "يقول تعالى آمرًا عباده **بتدبّر القرآن**، وناهيا لهم عن الإعراض عنه، وعن تفهّم معانيه المحكمة وألفاظه البليغة، ومخبرًا لهم أنه لا اختلاف فيه ولا اضطراب، ولا تضادّ ولا تعارض؛ لأنه تنزيل من حكيم حميد، **فهو حقٌّ من حقٍّ**".[2]

---

[1] التحرير والتنوير، ابن عاشور، (٣/٤٨٣).

[2] تفسير ابن كثير (٢/٣٦٤).

كما تضمّنت هذه الآيات **التوبيخ والإنكار** على من أعرض عن **تدبّر كتاب الله**، وقد ذمّ جلّ وعلا المعرض عن هذا القرآن العظيم، في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿ **وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا** ﴾ الكهف: ٥٧ ، وقوله تعالى: ﴿ **وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ** ﴾ السجدة: ٢٢.

ومعلوم أن كل من لم يشتغل **بتدبّر آيات القرآن العظيم**، أي تصفّحها وتفهّمها، وإدراك معانيها، والعمل بها، **فإنه مُعرِضٌ عنها**، **غير متدبّر لها**، فيستحقّ الإنكار والتوبيخ المذكورين في الآيات، إن كان الله أعطاه فهماً يقدر به على التدبّر.

وقد شكا النبيّ ﷺ إلى ربّه من **هجران قومه هذا القرآن**، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ **وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾** ﴾ الفرقان: ٣٠.

وذكر أهل التفسير: أن **ترك تدبّره وتفهّمه**، هو من **هجرانه**، وترك الإيمان به وتصديقه، والعمل به، وامتثال أوامره واجتناب زواجره، هو من **هجرانه**، والعدولُ عنه إلى غيره من شعر أو قول أو غناء أو لهو أو كلام أو طريقة أو منهج مأخوذ من غيره، من أيضا يعتبر من **هجرانه**. (١

ثانيا: الأمر بالتدبّر والترغيب فيه، في ضوء السنة النبوية، وعمل السّلف:

١-لا شكّ أن **النبيّ ﷺ** ، كانت له مع **تدبّر القرآن الكريم** أخلاقيات عالية وراقية، سجّلتها سيرته العطرة وسنّته الطاهرة ﷺ ، كيف لا! وهو القدوة والأسوة الحسنة للبشرية قاطبة وإلى يوم الدين، في جميع حركاته وسكناته، وبالخصوص في تعامله مع القرآن، تلاوة واستماعا وتدبّرا، ومن ذلك:

ما رواه **عَبْدِ اللَّهِ بن مسعود** رضي الله عنه قَالَ: قَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ : (اقْرَأْ عَلَيَّ الْقُرْآنَ)، قُلْتُ: آقْرَأُ عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أُنْزِلَ؟! قَالَ: (إِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي). (٢

قال **ابن بطال** -رحمه الله-:"يحتمل أن يكون كي **يتدبّره ويفهمه**، وذلك أن المستمع أقوى". (٣

١- ابن كثير، المصدر نفسه، (١٠٨/٦)، وجامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري، المحقق:أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م،(٢٦٤/١٩)، وتفسير القرطبي (٢٧/١٣)، معالم التنزيل، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، المحقق:حققه وخرج أحاديثه محمد عبد الله النمر-عثمان جمعة ضميرية-سليمان مسلم الحرش، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٤،١٤١٧ هـ-١٩٩٧م، (٨٢/٦).

٢- رواه البخاري في صحيحه (ح:٤٦٦١، ٤٧٢/١٥).

٣- شرح صحيح البخاري، أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك بن بطال البكري القرطبي، تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم مكتبة الرشد، الرياض، ط٢، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٣م، (٢٧٧/١٠).

-ما رواه **أبو ذرّ** رضي الله عنه ، قال: قَامَ **النَّبِيُّ** ﷺ ، حَتَّى أَصْبَحَ، بِآيَةٍ، وَالْآيَةُ ﴿ **إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١١٨** ﴾ المائدة: ١١٨. (١)

-وعن **جندب**، بلغه عن **حذيفة** أو سمعه عن **النبيّ** ﷺ :"ذكر ناسا يقرءون القرآن، ينثرونه نثر الدقل(٢)، يتأولونه على غير تأويله". (٣)

قال **المبار كفوري:**" أي يرمون بكلماته من غير روية وتأمّل،كما يرمى الدَّقَل، بفتحتين، وهو رديء التمر، فإنه لرداءته لا يحفظ، ويلقى منثورا ...وقال **النووي:** معناه أن قوما يقرأون، وليس حظهم من القرآن إلا مروره على اللسان، فلا يجاوز تراقيهم ليصل قلوبهم، وليس ذلك هو المطلوب، **بل المطلوب تعقّله وتدبّره، بوقوعه في القلب**". (٤)

– وعن **عائشة** أنه ذُكر لها أن ناسا يقرؤون القرآن في الليل مرة أو مرتين، فقالت: أولئك قرؤوا ولم يقرؤوا، كنت أقوم مع **النبي** ﷺ ليلة التمام، فكان يقرأ سورة البقرة وآل عمران والنساء، فلا يمرّ بآية فيها تخوّف إلا دعا الله واستعاذ، ولا يمرّ بآية فيها استبشار إلا دعا الله ورغّب إليه. (٥)

قال **الصنعاني** :"الحديث دليل على أنه ينبغي للقارئ في الصلاة **تدبّر ما يقرؤه،** وسؤال رحمته والاستعاذة من عذابه". (٦)

-وعن **أبي هريرة** رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (...وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله، **ويتدارسونه بينهم**، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده...). (٧)

١- رواه في السنن، ابن ماجة، (ح:١٣٤٠، ٢٦١/٤)، والنسائي (ح:١٠٠٠، ١٢٢/٤)، وأحمد في مسنده (ح:٢٠٣٦٥، ٤٣، ٣٣١)، المستدرك على الصحيحين، محمد بن عبدالله أبو عبدالله الحاكم النيسابوري، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١١هـ-١٩٩٠م، (ح:٨٤٥، ٤٠١/٢)، وقال:صحيح ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وصحّحه الألباني في مشكاة المصابيح، (١٢٠٥).

٢- والدَّقَل: الرديء اليابس من التمر، والمراد أن القارئ يرمي بكلمات القرآن من غير رؤية وتأمل،كما يتساقط الدقل من العذق إذا هُزّ، أنظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري، تحقيق : طاهر أحمد الزاوي – محمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية- بيروت، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م، (٢٩٩/٢)، واللسان، لابن منظور (٢٤٦/١١).

٣- الأحاديث المرفوعة من التاريخ الكبير، للبخاري، (ح:٧٥٤، ٢٥٦/٢).

٤- تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المبار كفوري أبو العلا، دار الكتب العلمية، بيروت، (١٧٨/٣).

٥- رواه أحمد في مسنده، (ح:٢٣٤٦٨، ١٢٤/٥٠).

٦- سبل السلام، محمد بن إسماعيل الأمير الكحلاني الصنعاني، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، ط٤، ١٣٧٩هـ-١٩٦٠م.

٧- رواه مسلم في صحيحه (ح:٤٨٦٧، ٢١٢/١٣).

والمعنى أنهم يقرؤون كتاب الله، سواءٌ أكانت هذه القراءة بأن يقوم شخص ويقرأ ويفسِّر أو غيره يفسِّر، أم أنهم يجتمعون بحيث يقرأ واحد منهم مقداراً من القرآن ويستمع الباقون، ويكون هناك شخص يصوب قراءته ويبين ما عليه من ملاحظات، كل ذلك يدخل تحت التدارس، وكذلك **تأملُ ما فيه، ومعرفةُ ما فيه، وتدبرُ ما فيه**. (١)

-وعن **أبي وَائِلٍ**، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى **ابْنِ مَسْعُودٍ**، فَقَالَ: قَرَأْتُ الْمُفَصَّلَ اللَّيْلَةَ فِي رَكْعَةٍ، فَقَالَ: هَذًّا(٢) كَهَذِّ الشِّعْرِ، لَقَدْ عَرَفْتُ النَّظَائِرَ الَّتِي **كَانَ النَّبِيُّ ﷺ** يَقْرُنُ بَيْنَهُنَّ، فَذَكَرَ عِشْرِينَ سُورَةً مِنْ الْمُفَصَّلِ، سُورَتَيْنِ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ". (٣)

قال **النووي**:"إن هذا كان قدر قراءته ﷺ غالبا، وأن تطويله الوارد، إنما كان في **التدبّر والترتيل**". (٤)

وقال **العيني**:"ويستفاد منه **النهي عن الهذِّ**، وفيه الحثُّ على **الترسّل والتدبّر**، وبه قال جمهور العلماء". (٥)

وقال **الحافظ ابن حجر**:"وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ مِنْ **الْفَوَائِدِ، كَرَاهَةُ الْإِفْرَاطِ فِي سُرْعَةِ التِّلَاوَةِ** ؛ لِأَنَّهُ **يُنَافِي الْمَطْلُوبَ مِنْ التَّدَبُّرِ وَالتَّفَكُّرِ** فِي مَعَانِي الْقُرْآنِ، وفيه أن **التّرتيل أفضل من الهذّ** ؛ إذ لا يصحّ **التدبّر** مع الهذِّ". (٦

-وعن **أنس** رضي الله عنه ، أنَّهُ سُئل عن قِرَاءَةُ **النَّبِيِّ ﷺ** ، فَقَالَ:كَانَ يمدّ مَدًّا، ثُمَّ قَرَأَ : ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، يَمُدُّ بِبِسْمِ اللَّهِ، وَيَمُدُّ بِالرَّحْمَنِ، وَيَمُدُّ بِالرَّحِيمِ". (٧

قال **ابن بطّال**:" فكان يقرؤه على مهل ؛ ليبيّن لأمته **كيف يقرؤون، وكيف يمكنهم تدبّر القرآن وفهمه**".[٨]

-وَعن **أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ السلمي، قال**:حَدَّثَنَا الَّذِينَ كَانُوا يُقْرِئُونَنَا الْقُرْآنَ، **عُثْمَانُ بْنُ عفان وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ**، أَنَّهُمْ قَالُوا:"كُنَّا إِذَا تَعَلَّمْنَا مِنْ **النَّبِيِّ ﷺ** عَشْرَ آيَاتٍ، لَمْ نُجَاوِزْهَا حَتَّى نَتَعَلَّمَ مَا فِيهَا مِنْ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ"، قَالُوا:"فَتَعَلَّمْنَا الْقُرْآنَ وَالْعِلْمَ وَالْعَمَلَ جَمِيعًا".[١]

١- تحفة الأحوذي، المبار كفوري أبو العلا، (٨/٢١٥-٢١٦).

٢- وقوله"هذّا":بفَتْحِ الْهَاءِ وَتَشْدِيدِ الذَّالِ الْمُعْجَمَةِ، أَيْ سَرْدًا وَإِفْرَاطًا فِي السُّرْعَةِ، أنظر فتح الباري، الحافظ ابن حجر (٣/١٥١)، وقال ابن رجب الحنبلي:"هو متابعة القراءة في سرعة، وكرهه ابن مسعود لما فيه من قلة التدبّر لما يقرءوه"، أنظر فتح الباري شرح صحيح البخاري، زين الدين أبي الفرج عبد الرحمن ابن شهاب الدين البغدادي ثم الدمشقي الشهير بابن رجب، دار ابن الجوزي— السعودية، الدمام- ١٤٢٢هـ، (٤/٤٧٢).

الطبعة : الثانية ، تحقيق : أبو معاذ طارق بن عوض الله بن محمد

٣- متفق عليه، رواه البخاري في صحيحه، (ح:٧٢٣، ٣/٢٣٤)، ومسلم في صحيحه، (ح:١٣٦١، ٤/٢٦٢).

٤- شرح صحيح مسلم، النووي، (٦/١٠٥).

٥- عمدة القاري شرح صحيح البخاري، بدر الدين العيني الحنفي، (٩/٢١٦).

٦- فتح الباري، الحافظ ابن حجر (٣/١٥١).

٧-رواه البخاري في صحيح، (ح:٤٦٥٨، ١٥/٤٦٦).

٨- شرح صحيح البخاري، لابن بطال، (١٩/٣٦١).

أي: أنهم كانوا يتعلّمون العلم والعمل جميعاً، فيكونون بذلك قد جمعوا بين العلم والفقه، وبين معرفة أحكامه وما اشتمل عليه، فيجمعون العلم والعمل، ولا شكّ أن ذلك لا يكون إلا **بالتدبّر والتأمّل والفهم**.[٢]

-وعن **ابن عباس** في قوله تعالى : ﴿ **لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ١٦** ﴾ القيامة: ١٦ ، كان **رسول الله** ﷺ إذا نزل جبريل بالوحي، وكان ممّا يحرِّك به لسانه وشفتيه فيشتد عليه"[٣] .

وفيه دليل على وجوب ترتيل القراءة والترسل فيها من غير هَذْرَمة ولا سرعة مفرطة، **بل بتأمل وتفكر وتدبّر**، قال الله تعالى:﴿ **كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ٢٩** ﴾ ص: ٢٩ .[٤]

٢-وهذه بعض **أخبار وأحوال السّلف مع تدبّر القرآن:**

فكما سجّل لنا التاريخ الإسلامي، حياة النبي ﷺ مع **تدبّر القرآن**، فقد سجّل لنا أيضا وقفات وأحوالا وأخبارا، **لسلفنا الصالح**، مع **تدبّر القرآن**، ومن ذلك:

ما روي عن **مسروق** قال: قال لي رجل من أهل مكة : هذا مقام أخيك تميم الداري، لقد رأيته ذات ليلة حتى أصبح، أو قَرُبَ أن يصبح يقرأ بآية من القرآن يركع فيها ويسجد ويبكي ﴿ **أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ٢١** ﴾ الجاثية: ٢١ .[٥]

وعن **أبي حمزة** -رحمه الله- : قلت لابن عباس رضي الله عنه : إني سريع القراءة، أقرأ القرآن في مقام، فقال **ابن عباس** -رضي الله عنهما-:"لأن أقرأ البقرة فأرتِّلها **وأتدبَّرها** أحبّ إليّ من أن أقرأ القرآن كما تقول"، وفي رواية: "لأن أقرأ البقرة في ليلة **أتدبّرها وأفكّر** فيها أحبّ إليّ من أن أقرأ القرآن كلّه في ليلة".[٦]

وعن **أبي وائل** قال: جاء رجل إلى **عبد الله**، فقال: إني قرأت المفصل البارحة، فقال **عبد الله:** هذّا كهذّ الشعر، ونثرا كنثر الدقل، إني **أفصِّل لتفصِّلوه**، ولقد علمت النظائر التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ سورتين في ركعة".[٧]

١- مجموع الفتاوى، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، المحقق: أنور الباز-عامر الجزار، دار الوفاء، ط٣، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م، (١/٣٠٣).

٢- شرح سنن أبي داود، عبد المحسن العباد، (١٧/١٠٧).

٣- أخرجه البخاري برقم (٤٩٢٩) ٦/١٦٣ ، ومسلم برقم (٤٤٨) ١/٣٣٠ .

٤- تفسير ابن كثير، (١/٧٧).

٥- المعجم الكبير، الطبراني، (ح:١٢٣٦، ٢/٤١)، والزهد لأبي داود، (ح:٣٧٩، ١/٤١٧).

٦- مختصر قيام الليل، لمحمد بن نصر المروزي، (١/٢١٥).

٧- شعب الإيمان، أبو بكر البيهقي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١٤، ١٤١٠هـ.

وعن سعيد بن عبيد قال: رأيت **سعيد بن جبير**، وهو يؤمّهم في رمضان، يردّد هذه الآية : ﴿ **إِذِ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسۡحَبُونَ ٧١** ﴾ غافر: ٧١ ، و﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ٦** ﴾ الانفطار: ٦ ، يردّدها مرتين أو ثلاثاً".[١]

ورُوي عن **محمد بن كعب القرظي** رضي الله عنه يقول : " لأن أقرأ ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾ و﴿الْقَارِعَةُ﴾ ليلة أرددهما وأتفكر فيهما، أحبّ إليَّ من أن أبيت أهذُّ القرآن".[٢]

وسئل **مجاهد** عن رجلين قرأ أحدهما البقرة، وقرأ الآخر البقرة وآل عمران، فكان ركوعهما وسجودهما وجلوسهما سواء، أيهما أفضل ؟ قال الذي قرأ البقرة، ثم قرأ مجاهد : ﴿ **وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا ١٠٦** ﴾ الإسراء: ١٠٦ [٣])، والآثار في شأن السلف مع تدبر القرآن الكريم كثيرة، نكتفي بهذه الإلماحة اليسيرة.

وقال **الحسن بن علي** –رضي الله عنهما– :" إن من كان قبلكم رأوا القرآن رسائل من ربهم فكانوا يتدبرونها بالليل ، ويتفقدونها في النهار".[٤]

وقال **عبد الله بن عمرو**: " لقد عشنا دهرا طويلا، وإن أحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن، فتنزل السورة على محمد ﷺ ، فنتعلم حلالها وحرامها وآمرها وزاجرها، وما ينبغي أن يوقف عنده منها ، ثم لقد رأيت رجالا يؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان، فيقرأ ما بين فاتحة الكتاب إلى خاتمته، لا يدري ما آمره ولا زاجره وما ينبغي أن يقف عنده منه، ينثره نثر الدقل".[٥]

وقال **النووي** –رحمه الله– ، في الإرشاد إلى **تدبّر القرآن**، عمّا كان عليه من **أحوال السّلف**:

"وقد كانت **للسّلف** عادات مختلفة فيما يقرءون كل يوم، بحسب أحوالهم وأفهامهم ووظائفهم، فكان بعضهم يختم القرآن في كل شهر، وبعضهم في عشرين يوما، وبعضهم في عشرة أيام، وبعضهم أو أكثرهم في سبعة، وكثير منهم في ثلاثة...**والمختار** أنه يستكثر منه ما يمكنه الدوام عليه، ولا يعتاد إلا ما يغلب على ظنه الدوام عليه، في حال نشاطه وغيره، هذا إذا لم تكن له وظائف عامة أو خاصة، يتعطل بإكثار القرآن عنها، فإن كانت له وظيفة

---

[١] – رواه عبد الرزاق في مصنفه (ح:٤١٩٦، ٢/٤٩٢).

[٢] – رواه ابن أبي شيبة في مصنفه، (ح:٩، ٢/٤٠٢).

[٣] – رواه ابن أبي شيبة في مصنفه، (ح:١٢، ٢/٤٠٣).

[٤] – إحياء علوم الدين، محمد بن محمد الغزالي أبو حامد، دار المعرفة، بيروت، (١/٢٧٥).

[٥] – المستدرك على الصحيحين ج١/ص٩١ (١٠١)، سنن البيهقي الكبرى ج٣/ص١٢٠(٥٠٧٣) .

عامة كولاية وتعليم ونحو ذلك، فليوظّف لنفسه قراءة يمكنه المحافظة عليها، مع نشاطه وغيره، من غير إخلال بشيء من كمال تلك الوظيفة، وعلى هذا يُحمل ما جاء عن السلف".[١]

وجملة القول: فهذه **الآيات القرآنية، والنصوص الحديثية**، وما ثبت من ذلك في وقائع **سير السّلف الصالح**، يدلّ على أن **تدبّر القرآن**، وتفهمّه، وتعلّمه، والعمل به، أمر استُقرّ عليه في **القرون الثلاثة الأولى** المشهود لها بالخيرية، **وهو لا بدّ منه للمسلمين** في كلّ زمان ومكان، وأن ثواب قراءة الترتيل **والتدبّر** أجلُّ وأرفعُ قدراً.[٢]

وقد بيّن **النبي ﷺ** أن المشتغلين بذلك، هم **خير الناس**، كما ثبت عنه ﷺ من حديث عثمان رضي الله عنه أنه قال: "**خيركم من تعلم القرآن وعلّمه**"[٣]، وقال تعالى : ﴿**وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ** ﴿٧٩﴾﴾ آل عمران: ٧٩.

فإعراض كثير من الناس عن **التدبّر في كتاب الله –تعالى**– ، والنّظر فيه، وتفهّمه، والعمل به، وبالسنّة الثابتة المبيّنة له، في جميع المجالات الحيوية، اجتماعيا، واقتصاديا، وتربويا، وثقافيا، وسياسيا، وما إلى ذلك من الأمور التي تحتاج إليها الأمّة، أفرادا وجماعات، هو من أعظمِ المناكر وأشنعِها، وإن ظنّ فاعلوه أنهم على هدى، باتباعهم مناهج غربية علمانية مستوردة، والله المستعان.[٤]

---

[١] – شرح صحيح مسلم، للنووي، (١٧٠/٤).

[٢] –زاد المعاد في هدي خير العباد، شمس الدين ابن قيم الجوزية، مؤسسة الرسالة، بيروت–مكتبة المنار الإسلامية، الكويت، ط٢٧، ١٤١٥هـ /١٩٩٤م.

[٣] – رواه البخاري في صحيحه (ح:٤٦٣٩، ٤٣٩/١٥).

[٤] – أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي، دار الفكر، بيروت، ١٤١٥هـ– ١٩٩٥م، (٣٥٨/٧).

المبحث الثاني:

حقيقة تدبّر القرآن الكريم.

لا شكّ أن الواجب، لبلوغ **حقيقة**[١] **التدبّر**، على مَن خصّه الله بحفظ كتابه، أن يتلوه حقّ تلاوته، **ويتدبّر حقائق** عبارته، ويتفهّم عجائبه، ويتبيّن غرائبه.[٢]

أولا: تكمن **حقيقة التدبّر في الحقائق** المرجوّة والمقصودة منه، وتتمثّل أصلا في **بيان مراد الله –تعالى–** من إنزاله القرآن الكريم، وقد تقدّمت النصوص في ذلك[٣]، والمتتبّع للآيات الخاصّة بهذا الشأن، وأخصّ بالذكر **آيات البيان وآيات التدبّر**، تتجلّى لديه **حقيقة التدبّر الأساسية**، التي تكشف لنا عن **حكمتين** من حِكَم إنزال القرآن على النبيّ ﷺ ، كما بيّن أهل العلم خلفا وسلفا:

الحكمة الأولى: أن الله ﷿ أنزل القرآن على نبيّه ﷺ ، **ليبيِّن للناس ما نُزِّل إليهم** في هذا الكتاب، من الأحكام الشرعية، والوعد والوعيد، ونحو ذلك.

ومن الآيات في هذا الشأن، قوله تعالى : ﴿**وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ** (٤٤)﴾ وقوله: ﴿ **وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ** (٦٤) ﴾ النحل: ٦٤.[٤]

والحكمة الثانية: هي **التدبّر والتفكّر** في آيات الله والاتعاظ بها، والتأمّل في أحكامها ومقاصدها، والعمل بما جاء فيها تقرّبا إلى رضى الله –تعالى–.

---

[١] الحَقِيقَةُ ما يصير إليه حَقُّ الأمر ووجُوبُه، وبلغ حقيقةَ الأمر أي يَقِينَ شأنه، وهي الثبات والاستقرار والقطع واليقين ومخالفة المجاز، وتتناقض الحقيقة مع الكذب والغلط والوهم والظن والشك والتخمين والرأي والاعتقاد والباطل، وفي الحديث:"لا يبلُغ المؤمن حقيقةَ الإيمان حتى لا يَعِيب مسلماً بِعَيْب هو فيه"، يعني خالِصَ الإيمان ومَحْضَه وكُنْهَه، أنظر لسان العرب (حقق)، (١٠/٤٩)، وغريب الحديث لابن الأثير (١/١٠١٥).

[٢] تفسير القرطبي، ١/٢.

[٣] انظر المبحث الأول: الأمر والترغيب في تدبّر القرآن، من الكتاب والسنة، ص:٦، من هذا البحث.

[٤] أضواء البيان، محمد الأمين الشنقيطي، (٣/١٠)، وتفسير القرطبي، (١٠/١٠٩)، وفتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، محمد بن علي بن محمد الشوكاني (المتوفى:١٢٥٠هـ)، (٤/٢٢٣).

ومن الآيات في هذا الشأن، قوله تعالى : ﴿ **كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٩** ﴾ ص: ٢٩ ، وقوله : ﴿ **أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ٨٢** ﴾ النساء: ٨٢ ، وقوله: ﴿أَفَلاَ **يَتَدَبَّرُونَ** القرآن أَمْ على قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾، محمد- ٢٤، إلى غير ذلك من الآيات.[1]

وعليه، فإن قوله تعالى : ﴿**لِّيَدَّبَّرُوا**﴾ متعلق بقوله تعالى : ﴿**أَنزَلْنَاهُ**﴾، والمراد **أنزلناه ليدّبّروا آياته** ؛ وذلك بغرض استخراج **حقائق أسرار التكوين والتشريع**، ومضمون هذه المعاني يشير إلى **الغاية والمقصود من إنزال القرآن**، فلم ينزّله الله –تعالى- ليتباهى الناس به، ويتمارى به القرّاء، دون اعتناء بمضمونه، واستخراج لمكنونه، وأخذ بمراده ومطلوبه ، بل أنزله **لتدبّر آياته**، والتفكّر والنظر فيها، ومن ثمّ العمل به جملة وتفصيلا، بحيث يتخذ **دستوراً ومنهجاً**، يسيرون عليه ويرجعون إليه، ويحتكمون إلى تعاليمه وآياته ؛ لقوله تعالى : ﴿ **لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ** ﴾ المائدة: ٤٨ .

ولن يحصل ذلك إلا **بتدبّر آياته وفهم عباراته**، والوقوف على **مقصود الله** –سبحانه وتعالى- من كتابه، ولما كان حصول المقصود من إنزال القرآن الكريم لا يتم إلا **بالتدبّر** لهذا الكتاب الكريم ، أمر الله بذلك فقال : ﴿**ليدّبّروا آيَاتِهِ**﴾، ومعناه : ليتفكّروا فيها، فيقفوا على ما فيه ويعملوا به، وهذه **أسمى حقائق تدبّر القرآن**.

وفي هذا السياق يقول **السّعدي** –رحمه الله- مبيّنا **حقيقة التدبّر**، وما ترمي إليه هذه العبارة من **الخير والفوائد**: "يأمر تعالى **بتدبّر** كتابه، وهو **التأمّل** في معانيه، وتحديق الفكر فيه، وفي مبادئه وعواقبه، ولوازمه، ذلك لأن **تدبّر** كتاب الله مفتاح للعلوم والمعارف، وبه يُستنتج كل خير وتُستخرج منه جميع العلوم، وبه يزداد الإيمان في القلب وترسخ شجرته، فإنه يعرِّف بالربّ المعبود، وما له من صفات الكمال؛ وما ينزّه عنه من سمات النقص، ويعرِّف الطريق الموصلة إليه وصفة أهلها، وما لهم عند القدوم عليه، ويعرِّف العدوّ الذي هو العدوّ على الحقيقة، والطريق الموصلة إلى العذاب، وصفة أهلها، وما لهم عند وجود أسباب العقاب.[2]

ومن **حقائق تدبّر القرآن**، أنه كلما ازداد العبد **تأمّلا** فيه، **ازداد علما وعملا وبصيرة وإيمانا** ؛ لذلك أمر الله بذلك، وحثّ عليه، وأخبر أنه هو المقصود بإنزال القرآن، كما قال تعالى : ﴿ **كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ**

---

[1] ١- محمد الأمين الشنقيطي، المصدر نفسه، (١٠/٣)، والتحرير والتنوير، ابن عاشور، (٥٢/٨).

[2] ٢- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (المتوفى:١٣٧٦هـ)، المحقق:عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م، (١٨٩/١).

وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾ ص: ٢٩ ، وقال تعالى : ﴿ **أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾** ﴾ محمد: ٢٤.

ثانيا:ومن خلال **عملية التدبّر**، تتجلّى **حقائق وفوائد نفيسة**، ومن بينها:

-أن العبد يصل **بالتدبّر** إلى **حقيقة اليقين والعلم بأن القرآن كلام الله** ؛ لأنه يراه يصدّق بعضه بعضا، ويوافق بعضه بعضا، فترى الحكم والقصة والإخبارات تعاد في القرآن في عدة مواضع، كلها متوافقة متصادقة، لا ينقض بعضها بعضا، فبذلك يعلم كمال القرآن، وأنه من عند من أحاط علمه بجميع الأمور ؛ فلذلك قال تعالى:﴿ **أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾** ﴾ النساء: ٨٢ ، أي: فلما كان من عند الله لم يكن فيه اختلاف أصلا.[1]

-كما أن **حقيقة تدبّر القرآن** تكشف لنا عن **المعنى الحقيقي للدِّين الإسلامي**، وعلاقته **بترقية الأمّة** نحو **الأحسن والأجود والأتقن** ، في جميع المجالات الحيوية المتعلّقة بحياة الناس، فعملية **التدبّر** للقرآن الكريم، في كلياته وجزئياته، وفي أصوله وفروعه.

-كما تفيدنا أن **الدّين** هو ما كلّف الله به الأمّة من مجموع العقائد، والأعمال، والشرائع، والنظم.

-وأن إكمال الدين في قوله تعالى : ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ** ﴾ **المائدة**: ٣ ، هو إكمال البيان المراد لله –تعالى– ، الذي اقتضت الحكمة تنجيمه، فكان بعد نزول أحكام الاعتقاد، التي لا يسع المسلمين جهلها، وبعد تفاصيل أحكام قواعد الإسلام التي آخرها الحجّ بالقول والفعل، وبعد بيان شرائع المعاملات، وأصول النظام الإسلامي، كان بعد ذلك كلّه قد تمّ البيان المراد لله تعالى في قوله : ﴿ **وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾** ﴾ النحل: ٨٩ ، وقوله: ﴿**لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ**﴾، النحل-٤٤، بحيث صار مجموع التشريع الحاصل بالقرآن والسنّة، كافياً في هدي الأمّة في عبادتها، ومعاملتها، وسياستها، في سائر عصورها، بحسب ما تدعو إليه حاجاتها، فقد كان الدين وافياً في كلّ وقت، بما يحتاجه المسلمون.[2]

---

[1] – السعدي، المصدر نفسه، (١٨٩/١).

[2] – التحرير والتنوير، ابن عاشور، (١٣٣/٤).

ثالثا: أن **حقيقة تدبّر القرآن** تتضمّن بيان وتحديد مظاهر **الإعجاز:**

ذلك أن من **تَدبّر القرآن** وجد فيه من **وجوه الإعجاز** فنونًا ظاهرة وخفية، من حيث اللفظ ومن جهة المعنى قال الله –تعالى– : ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١﴾ هود: ١ ، فأُحكمت ألفاظه، وفُصِّلت معانيه أو بالعكس على الخلاف، فكلّ من لفظه ومعناه فصيح لا يجارى ولا يدانى.[1]

١– فقد أخبر عن **مغيّبات ماضية وآتية،** كانت ووقعت، طبق ما أخبر سواء بسواء.

–**وأمر بكل خير**، ونهى عن كل شر،كما قال: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝١١٥﴾ الأنعام: ١١٥ ، أي:صدقًا في الأخبار وعدلا في الأحكام، فكلّه حقٌّ وصدق وعدل وهدى، ليس فيه مجازفة ولا كذب ولا افتراء، كما يوجد في أشعار العرب وغيرهم من الأكاذيب والمجازفات، التي لا يحسن شعرهم إلا بها، وأما **القرآن فجميعه فصيح في غاية نهايات البلاغة،** عند من يعرف ذلك تفصيلا وإجمالا، ممّن فهم كلام العرب وتصاريف التعبير، فإنه إن تأمّلت أخباره وجدتها في غاية الحلاوة، سواء كانت مبسوطة أو وجيزة، وسواء تكررت أم لا، وكلما تكرّر حلاً وعلاً، لا يَخلق عن كثرة الرد، ولا يملّ منه العلماء، كما جاء في الحديث:" هو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يَخْلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه".[2]

٢– وإن أخذ في **الوعيد والتهديد،** جاء منه ما تقشعرّ له الجبال وتتصدّع ؛ لقوله تعالى:﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۝٢١﴾ الحشر: ٢١ ، فما ظنك بالقلوب الرهيفات.

–وإنْ **وعَدَ،** أتى بما يفتح القلوب والآذان، ويشوّق إلى دار السلام، ومجاورة عرش الرحمن، كما قال في الترغيب : ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١٧﴾ السجدة: ١٧ ، وقال: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٧١﴾ الزخرف: ٧١.

–وقال في **الترهيب:** ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ۝٦٨﴾ الإسراء: ٦٨ ، وقوله تعالى : ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ۝١٦ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ۝١٧﴾ الملك: ١٦ - ١٧.

–وقال في **الزجر:** ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ﴾ العنكبوت: ٤٠.

---

[1] تفسير ابن كثير، (١/١٩٩).

[2] رواه الترمذي في سننه (ح:٢٩٠٦، ٥/١٧٢)، قال أبو عيسى: هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه وإسناده مجهول وفي الحارث مقال، وضعّفه قال الشيخ الألباني، ضعيف الترمذي (٢٩٠٦).

-وقال في **الوعظ**: ﴿ **أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾** ﴾ الشعراء: ٢٠٥ - ٢٠٧ ، إلى غير ذلك من أنواع الفصاحة والبلاغة والحلاوة.

٣– وإن جاءت الآيات في **الأحكام والأوامر والنواهي**، اشتملت على الأمر بكل معروف حَسن ونافع وطيّب محبوب، والنهي عن كل قبيح رذيل دنيء ؛ كما قال ابن مسعود وغيره من السلف : إذا سمعت الله –تعالى– يقول في القرآن : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، فأوعِها سمعك فإنه خير ما يأمر به أو شر ينهى عنه[١] ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ **يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ** ﴾ الأعراف: ١٥٧.

٤– إن جاءت الآيات في **وصف المعاد**، وما فيه من الأهوال، وفي **وصف الجنة والنار**، وما أعدّ الله فيهما لأوليائه وأعدائه من النعيم والجحيم والملاذ والعذاب الأليم، بشّرت به وحذّرت وأنذرت؛ ودعت إلى فعل الخيرات واجتناب المنكرات، وزهّدت في الدنيا، ورغّبت في الأخرى، وثبّتت على الطريقة المثلى، وهدت إلى صراط الله المستقيم وشرعه القويم، ونفت عن القلوب رجس الشيطان الرجيم.[٢]

٥– **كما أن حقيقة تدبّر القرآن**، تكشف لنا عن **الدّلالات** المعرِّفة بالله –تعالى– ، وعبادته حقّ العبادة.

والدّلالات على سعة رحمته، وجزيل فضله، ووجوب شكره، وكمال قدرته، وعظيم سلطانه، وسعة ملكه، وعموم خلقه لجميع الأشياء.

واتصافه بالحمد على كل ما اتصف به من الصفات الكاملة، وما فعله من الأفعال الحسنة، وتمام ربوبيته، وانفراده فيها.

وأن جميع **التدبير** في العالم العلوي والسفلي، في ماضي الأوقات وحاضرها ومستقبلها **بيد الله –تعالى–** ، ليس لأحد من الأمر شيء، ولا من القدرة شيء.

فينتج من ذلك أنه تعالى هو **المألوه المعبود وحده**، الذي لا يستحق أحد من العبودية شيئًا، كما لم يستحق من الربوبية شيئًا.

وينتج من ذلك امتلاء القلوب **بمعرفة الله –تعالى–** ومحبته وخوفه ورجائه.

---

[١] – تفسير ابن كثير، (١/٢٠٠).

٢– ابن كثير، المصدر نفسه، (١/٢٠٠–٢٠١).

وهذان الأمران : أي **معرفته وعبادته،** هما من **أعظم الحقائق** التي يُتوصّل بها عن طريق **التدبّر،** وهما اللذان خلق الله الخلق لأجلهما، وهما الغاية المقصودة منه تعالى لعباده، وهما الموصلان إلى كل خير وفلاح وصلاح، وسعادة دنيوية وأخروية، وهما اللّذان أشرف عطايا الكريم لعباده، وهما أشرف اللذّات على الإطلاق، وهما اللّذان إن فاتا، فات كل خير، وحضر كل شر، فنسأله تعالى أن يملأ قلوبنا بمعرفته ومحبته، وأن يجعل حركاتنا الباطنة والظاهرة، خالصة لوجهه، تابعة لأمره، إنه لا يتعاظمه سؤال، ولا يحفيه نوال.[١]

المبحث الثالث:

أهمية تدبّر القرآن الكريم في إصلاح الفرد والمجتمع.

لا شكّ أن منّة الهداية إلى الحقّ أعظمُ المنن ؛ لأنّ بها **صلاح المجتمع وسلامة أفراده،** من اعتداء قويّهم على ضعيفهم ، ولولا الهداية لكانت نعمة الإيجاد مختلّة أو مضمحلّة، وأن المراد بالحق الدّين، وهو الإيمان والأعمال الصالحة، وأصوله وهي الاعتقاد الصحيح.

والمعلوم أن التشريع ابتُدِئ بالنهي عن عبادة غير الله ؛ لأن ذلك هو **أصل الإصلاح؛** ولا ريب أن **إصلاح المعتقد وإصلاح الفكر،** مقدّم على **إصلاح العمل** ؛ إذ لا يشاقّ العقل إلى طلب الصّالحات إلا إذ كان **صالحا**[٢]، وهذا ما يُعرف في عصرنا بمصطلح **الأمن الفكري والعقدي،** وفي الحديث الصحيح : " ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب".[٣]

وبما أن الإنسان هو محور البناء، ومرتكز الوجود الحضاري، فإن إصلاحه يتحقق وِفق القيم المحدّدة في الكتاب والسنة، المؤسَّسة على منهج الاستخلاف الذي يتضمّن **التكليف بإعمار الأرض بما هو أحسن وأنفع وأتقن،** لا يتم إلا **بتدبّر القرآن،** الذي هو عنصر أساسي في صناعة التميّز الروحي والمادي ؛ لبلوغ الخيرية التي ذكرها الله ﷻ في كتابه المجيد، حيث قال تعالى:﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ** ﴾ آل عمران: ١١٠.

---

[١] تفسير السعدي، المصدر السابق، (٧٤١/١).

[٢] التحرير والتنوير، ابن عاشور، (٥٤/١٤).

[٣] متفق عليه من حديث النعمان بن بشير، رواه البخاري (ح: ٥٠، ٩٠/١)، ومسلم (ح:٢٩٩٦، ٢٩٠/٨).

أي أن هذه الأمّة هي خير الأمم، والمنتمون إليها هم **أنفع الناس للناس** ؛ حيث إنهم يأمرون بالمعروف، وهو ما عُرف حُسنه شرعًا وعقلا، وينهون عن المنكر، وهو ما عُرف قُبحه شرعًا وعقلا، ويصدّقون بالله تصديقًا جازمًا، يؤيّده العمل الصالح.[١]

أولا: أهمية تدبّر القرآن والاعتناء به، في ترقية **الفرد والمجتمع:**

لا ريب أن الحياة مع كتاب اللّه نعمة يدركها من أنعم الله بها عليه، وما أسعد الإنسان إذا جعل هذا الكتاب إمامه، وهذا شأن المسلم، فاهتدى بهديه بعد أن تدبر آياته، وما أسعد المجتمع الذي يجمع مثل هذا الفرد، وما أشدّ بؤس الذين حرموا أنفسهم من هدايته، فخبطوا في حياتهم يمنة ويسرة، وانتهوا إلى ضياع أعمارهم وضياع دنياهم وآخرتهم : ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً﴾،الكهف، ١٠٣-١٠٥.(٢)

وإن أكثر الأوقات بركة تلك التي تُقضى مع هذا الكتاب الكريم ؛ إذ يعيش الإنسان مع كلام ربه ﷻ ، فيحسّ أنه يناجيه، فيرتقي مقامه، ويشعر بالعناية الإلهية تحيط به وترعاه، وتأخذ بيده إلى حيث سعادته وفلاحه.

يحسّ عندئذ هذا الأثر العميق للقرآن في حياة **الفرد والأمة** ، متى أدركت عمن تتلقّى وماذا عليها بعد التلقي ، يقف على أسرار هذا الكتاب الكريم، بعد **تدبّر وتفكّر وتأمّل**، وهو يصوغ تلك النفوس صياغة جديدة جعلت منهم، **أفرادًا وجماعات،** نماذج فريدة متميزة في تاريخ البشرية الطويل.(٣)

ثم يدرك من يعيش مع كتاب الله عُمق الخطر في دعاوى الذين يتّبعون أهواءهم، باتباع مناهج وثقافات علمانية وغربية، تتعارض مع أصول ثقافتنا العربية والإسلامية، تلك الدعاوى التي تريد أن تقطع صلة الأمّة بكتاب ربّها ﷻ ، فتنسلخ عن مصدر الهداية لتُغرق في التيه والضياع(٤)، قال الله : ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾،الأعراف-١٧٥.

---

١ – محمد بن أحمد أبو عبد الله القرطبي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق أحمد بن عبد العليم البردوني،ط٢، دار الشعب القاهرة، ١٣٧٢هـ،(١٧٣/٤)؛ وابن كثير،أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي،تفسير القرآن العظيم،دار الفكر،(در،دت)،(٩٠/١)

[٢]– معالم التنزيل، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، (ت:٥١٦ هـ)، حققه وخرج أحاديثه محمد عبد الله النمر، وعثمان جمعة ضميرية، وسليمان مسلم الحرش، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٤، ١٤١٧ هـ-١٩٩٧م، (٥/١).

[٣]– مقدمة تفسير البغوي، (٥/١).

[٤]– البغوي، المصدر نفسه، (٥/١).

ومن هنا ندرك **أهمية تدبّر القرآن** والاعتناء به، في ترقية **الفرد والمجتمع**، وآثاره الايجابية التي تنعكس عليهما، في مجال **إصلاح** أحوالهم الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والتربوية، وما إلى ذلك من الأمور الحيوية والمهمّة في حياة الناس.

ثانيا:تدبّر القرآن ومفهوم الإصلاح في الرؤية الإسلامية:

لا شكّ أن **مفهوم الإصلاح** في الرؤية الإسلامية، هو العودة **للفطرة البشرية** التي خلق الله الناس عليها، قال تعالى : ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾، الروم-٣٠، والعودة لدينه، ولهدي نبيّه ﷺ ، قال تعالى : ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾، الروم-٣٠، وما عدا ذلك فهو الفساد، وإن كان ظاهره الصلاح، ففي الإرشاد إلى **الصلاح** والكمال، نماء لما أودع الله في النفوس من الخير في الفطرة.([1])

ولا شكّ أن هذا **الصّلاح**، ينشأ عنه تواصل في الأجيال ؛ لأن الاستقامة في الآباء دوام الاستقامة في النسل، لأن النسل مُنْسَلٌ من ذوات الأصول ، فهو ينقل ما فيها من الأحوال الخِلقية والخُلُقية، ولما كان النسل منسَلاً من الذكر والأنثى ، كان بحكم الطبع محصِّلاً على مجموع من الحالتين ، فإن استوت الحالتان أو تقاربتا، جاء النسل على أحوال مساويةِ المظاهرِ لأحوال سلفه.([2])

والإصلاح مهمّة الأنبياء والمرسلين ، والدعاة إلى الله والمخلصين ، كما جاء على لسان شعيب عليه السلام ، في قوله تعالى : ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ **الإِصْلاَحَ** مَا اسْتَطَعْتُ﴾، هود-٨٨، أي: ليس لي من المقاصد إلا أن تصلح أحوالكم، وتستقيم منافعكم.

وهذا **الإصلاح** شامل للدين والدنيا والآخرة، كما جاء عن **أبي هريرة** رضي الله عنه قال:كان رسول الله ﷺ يقول : (اللهم **أصلح لي ديني** الذي هو عصمة أمري، **وأصلح لي دنياي** التي فيها معاشي، **وأصلح لي آخرتي** التي فيها معادي...).([3])

قال **المناوي** رحمه الله في شرح هذا الحديث:

---

[1] ١- التحرير والتنوير، ابن عاشور، المصدر السابق، (٤٤/٢).

[2] ٢- ابن عاشور، المصدر السابق، (٢٤٧/٢).

[3] ٣- رواه مسلم في صحيحه (ح:٤٨٩٧، ٢٤٩/١٣).

"(اللهم اصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري) ، أي الذي هو حافظ لجميع أموري، فإن من فسد دينه فسدت أموره، وخاب وخسر.

(وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي)، أي بإعطاء الكفاف فيما يحتاج إليه ، وكونه حلالا معينا على الطاعة.

(وأصلح لي آخرتي التي فيها معادي)، أي ما أعود إليه يوم القيامة، قال الطيبي: إصلاح المعاد، اللطف والتوفيق على طاعة الله وعبادته، وطلب الراحة بالموت، فجمع في هذه الثلاثة: صلاح الدين والدنيا والمعاد، وهي أصول مكارم الأخلاق".(١)

وقد تقدّم، أن معنى "**أصلَحَ**" أي فَعَلَ **الصّلاح**، وهو الطاعة لله فيما أمر ونهى ؛ لأنّ الله ما أراد بشرعه **إلاّ إصلاح الناس** في دينهم ودنياهم وأخراهم، وهي **الحكمة** من إنزال القرآن الكريم ؛ **ليتدبّر** الناس آياته، فيستخرجوا علمها، ويتأمّلوا أسرارها وحِكمها ، ولا يكون ذلك إلاّ **بالتدبّر** فيها والتأمّل لمعانيها، وإعادة الفكر فيها مرة بعد مرة، تُدرك بركة القرآن وخيره، فهو مفتاح للعلوم والمعارف، وبه يُستنتج كل خير، وتُستخرج منه جميع العلوم الدينية والدنيوية.

ومن هنا يتّضح لنا الارتباط القويّ، والعلاقة الوطيدة، بين **تدبّر القرآن** وبين **الإصلاح** الذي أمر الله به أنبياءه ورسله تحقيقه مع أممهم الذين أُرسِلوا إليهم ؛ ليخرجوهم من الظلمات إلى النور.

وأهمية تدبّر القرآن في **الإصلاح** سواء على **مستوى الفرد أو على مستوى المجتمع**، وفي جميع المجالات الحيوية، فإنها تكمن في إدراك وبلوغ **المقاصد** التي جاء القرآن لتبيانها، وتتمثّل في **معرفة الله –جلّ وعلا– وعبادته** ، وهمّا اللّذان خلق الله الخلق لأجلهما ، وهما الغاية المقصودة منه تعالى لعباده ، وهما الموصلان إلى كل خير وفلاح وصلاح ، قال تعالى :﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ الذاريات: ٥٦ ، **فالإصلاح** في الأرض ، أن تعمّر بطاعة الله والإيمان به، فإذا عمل فيها بضدّه، كان سعيا فيها بالفساد، و إخرابا لها عمّا خُلقت له.(٢)

ثالثا:المقاصد والأبعاد في تدبّر القرآن:

---

(١) – التيسير بشرح الجامع الصغير، الحافظ زين الدين عبد الرؤوف المناوي، مكتبة الإمام الشافعي،الرياض، ط٣، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م، (٤٤١/١).

(٢) – تفسير السعدي، المصدر السابق، (٤٢/١).

ومن **منطلقات حقائق تدبّر القرآن استقرأ المفسّرون المقاصد الأصلية والأبعاد**، المتعلّقة بمجالات **الإصلاح** التي تحدّث عنها القرآن الكريم ، وقد لخّصها العلاّمة **ابن عاشور** في مقدمة تفسيره([1])، في ثمانية أمور:

١- **إصلاح الاعتقاد**، وتعليم العقد الصحيح، وهو أعظم سبب لإصلاح الخلق ؛ لأنّ **إصلاح الاعتقاد** هو **أصل الإصلاح**، ومفتاح باب الصلاح في العاجل، والفلاح في الآجل:

-لأنه يزيل عن النفس عادة الإذعان لغير ما قام عليه الدليل.

-ويطهر القلب من الأوهام الناشئة عن الشرك والشركيات، وقد أشار إلى هذا المعنى قوله تعالى : ﴿ **فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾** ﴾ هود: ١٠١ فأسند لآلهتهم زيادة تتبيبهم ، وليس هو من فعل الآلهة، ولكنه من آثار الاعتقاد بالآلهة، فسبب هلاكهم ودَمَارهم، إنما كان باتِّباعهم تلك الآلهة وعبادتهم إيّاها.

٢- **إصلاح الأخلاق وتهذيبها**، ولا يكون ذلك إلا بالتعليم الصحيح والآداب الإسلامية، قال الله تعالى: ﴿ **وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾** ﴾ القلم: ٤ ، وفسّرت **عائشة** -رضي الله تعالى عنها- لما سئلت عن خُلقه ﷺ فقالت : " كان خُلقه القرآن"[2]، وفي الحديث الذي رواه مالك في الموطأ بلاغا أن رسول الله ﷺ قال: (بُعثت لأتمم حُسن الأخلاق) .[3]

٣- **إصلاح التشريع** ، والأعراف والقوانين المسيّرة للمؤسسات (القضائية، الاقتصادية، التعليمية، الصحّية...بما يتماشى والشريعة الإسلامية).

قال تعالى : ﴿ **إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾** ﴾ النساء: ١٠٥.

وقال تعالى : ﴿ **وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ** ﴾ المائدة: ٤٨ .

ولقد جمع القرآن جميع الأحكام جمعا كليا في الغالب ، وجزئيا في المهم ، فقوله تعالى : ﴿ **تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ** ﴾ النحل: ٨٩ ، وقوله تعالى : ﴿ **ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ** ﴾ المائدة: ٣ ، المراد بهما إكمال الكليات التي منها الأمر بالاستنباط والقياس.[4]

١- التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، المصدر السابق، (٤١/١)، بتصرّف.

٢- رواه أحمد في مسنده، (ح:٢٣٤٦٠، ١١٦/٥٠).

٣- رواه مالك في الموطأ بلاغا، (٣٨٦/٥).

٤- تحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، المصدر السابق، (٤١/١)، بتصرّف.

٤- **إصلاح سياسة الأمّة، وتدبير شؤونها،** العامّة والخاصّة، في جميع المجالات الحيوية، وعلى جميع المستويات، وهو في حقيقة الأمر **باب عظيم** في القرآن الكريم، والقصد منه **صلاح الأمّة، أفرادا وجماعات، وحفظ نظامها، بإصلاح** عقائدهم وأخلاقهم، وبإصلاح أمزجتهم بالمحافظة عليهم من المهلكات والأخطار والأمراض، وبمداواتهم، ودفع الأضرار عنهم، وبكفاية مؤنهم من الطعام واللباس والمسكن، بالمعروف، دون تقتير ولا سرف، وكذا بإصلاح أموالهم، بتنميتها وتعهدها وحفظها، وتربيتهم على المحافظة على وحدة الأمة وتماسكها، وعلى الوسطية والاعتدال في كل أمر، والبعد عن الشقاق والغلو والتطرّف.

وذلك **بتدبّر الآيات** الخاصّة بهذا الشأن، كقوله تعالى : ﴿ **وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ (١٠٣)** ﴾ آل عمران: ١٠٣.

وقوله تعالى : ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍۚ إِنَّمَآ أَمۡرُهُمۡ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ (١٥٩)** ﴾ الأنعام: ١٥٩.

وقوله تعالى : ﴿ **وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ (٤٦)** ﴾ الأنفال: ٤٦. (١)

٥- **الإصلاح بالقصص،** وأخبار الأمم السالفة:

-**للتأسّي بصالح أحوالهم** ؛ وذلك **بتدبّر الآيات** الخاصّة بهذا الشأن،كما جاء في قوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾، يوسف-٣، وقوله تعالى: ﴿ **أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ (٩٠)** ﴾ الأنعام: ٩٠.

-**وللتحذير من مساوئهم** ، قال تعالى: ﴿ **وَسَكَنتُمۡ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَتَبَيَّنَ لَكُمۡ كَيۡفَ فَعَلۡنَا بِهِمۡ وَضَرَبۡنَا لَكُمُ ٱلۡأَمۡثَالَ (٤٥)** ﴾ إبراهيم: ٤٥.

٦- **الإصلاح بالتربية والتعليم،** مناهجها وطرقها وبرامجها، بما يناسب حالة عصر المخاطبين، وما يؤهّلهم إلى تلقّي الشريعة ونشرها، وذلك علم الشرائع وعلم الأخبار، وكان ذلك مبلغ علم مخالطي العرب من أهل الكتاب.

١- تحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، (١/٤١).

وقد زاد القرآن على ذلك تعليم **حكمة ميزان العقول وصحة الاستدلال** في أفانين مجادلاته للضالين، وفي دعوته إلى النظر، ثم نوّه بشأن الحكمة، فقال تعالى : ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ ۚ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٦٩﴾﴾ البقرة: ٢٦٩.

وهذا أوسع باب انبجست منه عيون المعارف، وانفتحت به عيون الأميين إلى العلم.

وقد لحق به التنبيه المتكرّر على فائدة العلم، وذلك شيء لم يطرق أسماع العرب من قبل، إنما قصارى علومهم أمور تجريبية، وكان حكماؤهم أفرادا اختصوا بفرط ذكاء تُضم إليه تجربة ، وهم العرفاء ، فجاء القرآن بقوله تعالى : ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ العنكبوت: ٤٣ ، وقوله تعالى : ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٩﴾﴾ الزمر: ٩ ، وقوله تعالى : ﴿ن ۚ وَالْقَلَمِ﴾ القلم: ١ ، فنبّه إلى مزية القراءة والكتابة.[1]

٧- **الإصلاح بتدبّر** آيات **الوعد والوعيد،** المتضمِّنة **المواعظ والإنذار والتبشير،** وكذلك المحاجّة والمجادلة للمعاندين، وهذا باب الترغيب والترهيب.

٨- **الإصلاح بتدبّر الآيات** الخاصّة ببيان وجوه **الإعجاز في القرآن** ؛ ليكون آية دالّة على صِدْق الرسول ﷺ ؛ إذ التصديق يتوقف على دلالة المعجزة بعد التحدّي، والقرآن جمع كونه معجزة بلفظه، ومتحدّي لأجله بمعناه، والتحدّي وقع فيه، قال تعالى : ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾ يونس: ٣٨.(٢)

ويتفرّع عن علاقة التدبّر بالإصلاح:

أن وظيفة المصلحين، تنطلق من **التدبّر والتأمّل،** في الآيات القرآنية الخاصّة بكل مجال من المجالات الحيوية، اجتماعيا، واقتصاديا، وثقافيا، وتربويا، وهي تتمثّل في **إرادة الإصلاح،** بتحقيق المصلحة التي تصلح بها أحوال العباد، وتستقيم بها أمورهم الدينية والدنيوية، وذلك:

-بتحصيل المصالح وتكميلها.

-وبدفع المفاسد وتقليلها.

-وبمراعاة المصالح العامّة على المصالح الخاصّة.

١- ابن عاشور، المصدر نفسه، (١/٤١)، بتصرّف.

٢- ابن عاشور، المصدر السابق، (١/٤١)، بتصرّف.

وأن من قام بما يقدر عليه من **الإصلاح،** لم يكن ملوما ولا مذموما في عدم فعل ما لا يقدر عليه ، فعلى العبد أن يقيم من الإصلاح في نفسه وفي غيره، ما يقدر عليه، لقوله تعالى : ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ **الإِصْلاَحَ** مَا اسْتَطَعْتُ﴾، هود-٨٨، كما ينبغي له أن لا يتّكل على نفسه طرفة عين ، بل لا يزال مستعينا بربّه - سبحانه وتعالى- ، متوكّلا عليه، سائلا له التوفيق ؛ لقوله تعالى : ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾، ولقول النبيّ ﷺ : " اللَّهُمَّ رَحْمَتَكَ أَرْجُو فَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ"[١] .

والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات.

١- رواه أبو داود في سننه (ح:٥٠٩٢، ٤/٤٨٤).

الخاتمة:

وجملة القول في **خاتمة** هذا البحث المتواضع، وما تضمّنه من نتائج:

فإنّ **تدبّر** القرآن الكريم، والوقوف عند معاني آياته وأحكامه، هو من الأمور المهمّات، **وآثاره الإصلاحية** على جميع المستويات جليّات ، إنْ على مستوى الأفراد أو على مستوى المجتمعات، وذلك في جميع المجالات، **كإصلاح الاعتقاد، وتهذيب الأخلاق، وتشريع الأحكام، وتحديد سياسات الأمة، التي بها يتم صلاحها وحفظ نظامها، اقتصاديا، وثقافيا، وصحيا، وتعليميا، واجتماعيا**...، وكلّ هذه المعاني وغيرها، تدخل ضمن **المقاصد الجامعة للقرآن الكريم**، في تقويم **حياة الناس** إلى يوم الدين، قال الله تعالى: ﴿ **إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا** ﴿٩﴾ ﴾ الإسراء: ٩.

ولا ريب أن **قيمة القرآن وبركته** تكمل في **تلاوته، وتدبّره، والعمل به**، فما اللفظ وترتيله إلا وسيلةٌ في إدراك المعنى وتحصيلِه، وطلبِ الخشوع، والتأثّرِ به، وترجمةِ هذا التأثّر إلى عمل صالح.

فالآيات القرآنية، والنصوص الحديثية، وما ثبت من ذلك في وقائع **سير السّلف الصالح**، يدلّ على أن **تدبّر القرآن**، وتفهمّه، وتعلّمه، والعمل به، **أمر لا بدّ منه للمسلمين**، وأن ثواب قراءة الترتيل **والتدبّر** أجلُّ وأرفعُ قدراً.

وقد بيّن **النبيّ** ﷺ أن المشتغلين بذلك، هم **خير الناس**، كما ثبت عنه ﷺ في الصحيح من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه قال :(**خيركم من تعلم القرآن وعلّمه**) ، وقال تعالى: ﴿ **وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ** ﴿٧٩﴾ ﴾ آل عمران: ٧٩.

فإعراض كثير من الناس عن **التدبّر في كتاب الله**، والنّظر فيه، وتفهّمه، والعمل به، وبالسنّة الثابتة المبيّنة له، في جميع المجالات الحيوية، اجتماعيا، واقتصاديا، وتربويا، وثقافيا، وسياسيا، وما إلى ذلك من الأمور التي تحتاج إليها الأمّة، أفرادا وجماعات، هو من أعظمِ المناكر وأشنعِها، وإن ظنّ فاعلوه أنهم على هدى، باتباعهم مناهج غربية علمانية مستوردة، والله المستعان.

وأن **حقيقة التدبّر تكمن** في **الحقائق** المرجوّة والمقصودة منه، وتتمثّل أصلا في **بيان مراد الله** من إنزاله القرآن الكريم، والمتتبِّع للآيات الخاصّة بهذا الشأن، وأخصُّ بالذكر **آيات البيان وآيات التدبّر**، تتجلّى لديه **حقيقة التدبّر الأساسية**، التي تكشف لنا عن **حِكمتين** من حِكَم إنزال القرآن على النبيّ صلّى الله عليه وسلم، كما بيّن أهل العلم خلفا وسلفا:

الحكمة الأولى: أن الله ﷻ أنزل القرآن على نبيّه ﷺ **ليبيِّن للناس ما نزُّ◌ِل إليهم** في هذا الكتاب، من الأحكام الشرعية، والوعد والوعيد، ونحو ذلك.

والحكمة الثانية: هي **التدبّر والتفكّر** في آيات الله والاتّعاظ بها، والتأمّل في أحكامها ومقاصدها، والعمل بما جاء فيها تقرّبا إلى رضى الله –تعالى–.

وعليه ، فإن قوله تعالى : ﴿**لِّيَدَّبَّرُوا**﴾ متعلق بقوله تعالى : ﴿**أَنزَلْنَاهُ**﴾، والمراد **أنزلناه ليدّبّروا آياته**، وذلك بغرض استخراج **حقائق أسرار التكوين والتشريع**، ومضمون هذه المعاني يشير إلى **الغاية والمقصود من إنزال القرآن**، وهو أن يتخذ **دستوراً ومنهجاً**، يسيرون عليه المسلمون ويرجعون إليه، ويحتكمون إلى تعاليمه وآياته، لقوله تعالى : ﴿ **لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ** ﴾ المائدة: ٤٨.

ولا شكّ أن **الاعتناء بالقرآن** الكريم **تدبّرا وتفكّرا وتأمّلا**، له **الأهمية** الكبرى في ترقية **الفرد والمجتمع**، في مجال **إصلاح** أحوالهم الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والتربوية، وما إلى ذلك من الأمور الحيوية والمهمّة في حياة الناس.

وأن **مفهوم الإصلاح** في الرؤية الإسلامية، هو العودة **للفطرة البشرية** التي خلق الله الناس عليها، قال تعالى:﴿ **فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ** ﴾ الروم: ٣٠ ، ولا يكون ذلك إلا **بالتدبّر**، والعودة لدينه، ولهدي نبيّه ﷺ ، قال تعالى : ﴿ **ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ** ﴾ الروم: ٣٠ ، وما عدا ذلك فهو الفساد، وإن كان ظاهره الصلاح، ففي الإرشاد إلى **الصلاح** والكمال نماء لما أودع الله في النفوس من الخير في الفطرة.

والإصلاح هو مهمّة الأنبياء والمرسلين، والدعاة إلى الله والمخلصين له، كما جاء على لسان شعيب ﵇ ، في قوله تعالى: ﴿ **إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ۚ** ﴾ هود: ٨٨ ؛ لأنّ الله ما أراد بشرعه **إلاّ إصلاح الناس**، في دينهم ودنياهم وأخراهم، وهي **الحكمة** من إنزال القرآن الكريم ؛ **ليتدبّر** الناس آياته، فيستخرجوا علمها، **ويتأمّلوا** أسرارها وحِكمها، فهو مفتاح للعلوم والمعارف الدينية والدنيوية، وبه يُستنتج كل خير، عاجلا أو آجلا.

ومن هنا يتّضح لنا **الارتباط القويّ**، والعلاقة الوطيدة، بين **تدبّر القرآن** وبين **الإصلاح** الذي أمر الله به أنبياءه ورسله تحقيقه مع أممهم الذين أُرسِلوا إليهم ؛ ليخرجوهم من الظلمات إلى النور.

وأهمية تدبّر القرآن في **الإصلاح** سواء على **مستوى الفرد أو على مستوى المجتمع**، تكمن في إدراك وبلوغ **المقاصد**، التي جاء القرآن لتبيانها، وتتمثّل في **معرفةِ الله –جلّ وعلا– وعبادتِه**، وهمّا اللّذان خلق الله الخلق لأجلهما، وهما الغاية المقصودة منه تعالى لعباده، وهما الموصلان إلى كل خير وفلاح وصلاح.

فالإصلاح في الأرض، أن تعمّر بطاعة الله والإيمان به، فإذا عمل فيها بضدّه، كان سعيا فيها بالفساد، وإخرابا لها عمّا خلقت له ؛ لقوله تعالى : ﴿ **وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا** ﴾ الأعراف: ٥٦.

ومن **منطلقات حقائق تدبّر القرآن، تُستقرأ المقاصد الأصلية والأبعاد**، المتعلّقة بمجالات **الإصلاح** التي تحدّث عنها القرآن الكريم، وقد لخّصها جلّ المفسّرون في:

-**إصلاح الاعتقاد**، وهو أعظم سبب لإصلاح الخلق ؛ لأنّ **إصلاح الاعتقاد** هو **أصل الإصلاح**، ومفتاح باب الصلاح في العاجل، والفلاح في الآجل.

– **وإصلاح الأخلاق وتهذيبها.**

– **وإصلاح التشريع**، والأعراف والقوانين المسيّرة للمؤسسات (القضائية، الاقتصادية، التعليمية، الصحّية...بما يتماشى والشريعة الإسلامية).

– **وإصلاح سياسة الأمّة، وتدبير شؤونها**، العامّة والخاصّة، في جميع المجالات الحيوية، وعلى جميع المستويات، وهو في حقيقة الأمر **باب عظيم** في القرآن الكريم، والقصد منه **صلاح الأمّة، أفرادا وجماعات، وحفظ نظامها**.

– **والإصلاح بالقصص**، وأخبار الأمم السالفة ؛ **للتأسّي بصالح أحوالهم، والتحذير من مساوئهم**.

– **والإصلاح بالتربية والتعليم والتكوين**، بسلامة المناهج والطرق والبرامج، بما يناسب حالة عصر المخاطَبين، وما يؤهّلهم إلى ترقية الحضارة الاسلامية، يصدق فيهم قوله تعالى : ﴿ **كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ** ﴾ آل عمران: ١١٠.

– **والإصلاح بتدبّر** آيات **الوعد والوعيد**، المتضمّنة **المواعظ والإنذار والتبشير**، وكذلك المحاجّة والمجادلة مع المخالف **بالتي هي أحسن**، وهذا باب الترغيب والترهيب.

– **والإصلاح بتدبّر الآيات** الخاصّة ببيان وجوه **الإعجاز في القرآن** ؛ ليكون آية دالّة على صدق الرسول ﷺ ، وعلى صدق **عالمية الاسلام**.

وهكذا، تنطلق وظيفة **المصلحين**، في كلّ زمان ومكان، من **التدبّر والتأمّل والتفكّر**، في الآيات القرآنية الخاصّة بكل مجال من المجالات الحيوية، الاجتماعية، والاقتصادية، والثقافية، والتربوية، والسياسية، **بإرادة الإصلاح الشامل**، لتحقيق المصلحة التي تصلح بها أحوال العباد، وتستقيم بها أمورهم الدينية والدنيوية، **والله أعلى وأعلم ، وعلمه أتم.**

التوصيات:

وهذه بعض **التوصيات** التي رأيت أنها تفيد موضوع البحث خصوصا، وموضوع المؤتمر عموما.

- ينبغي الاهتمام والاعتناء بمثل هذه المؤتمرات والندوات العلمية، الخاصّة بالقرآن الكريم والسنّة النبوية.
- تربية الشباب للعودة إلى الاستقامة على نهج القرآن الكريم والسنة النبوية، والاعتناء بكتاب الله، وحثّهم على **تلاوته، وتدبّره، وفهم معانيه**، والاستفادة من هداياته وعظاته.
- تشجيع المؤسّسات التعليمية، الخاصة بحفظ القرآن الكريم، وتنميتها وترقيتها، مادّيا ومعنويا، وأن تكون بالفعل محلّ اهتمام الرّاعي والرعية.
- **إصلاح تعليم القرآن الكريم**، بإعادة النظر في الوسائل والبرامج، فلابد من وضع **مناهج** للمتعلمين، تشجّعهم على **تدبّر القرآن الكريم وفهم معانيه**، والوصول بهم إلى درجة تكسبهم ملكة **التدبّر** لكتاب الله تعالى.
- تشجيع **الإعلام وأجهزة التواصل المجتمعاتية** بكلّ أنواعها، المرئية والمسموعة والمكتوبة، في إظهار **قيمة التدبّر وأثره في الإصلاح**، نحو **الأحسن والأتقن والأجود.**
- تأسيس **مواقع علمية** تتعلّق **بالتدبّر**، وترجمتها إلى مختلف اللغات العالمية.
- بيان أن كلّ **المصطلحات** التي تدلّ على **الإحسان والإتقان** ، **والدقة، والجودة، والمهارات، والإبداع**، وما شاكلها، في **فهم القرآن الكريم، إلا وروحها ومحرّكها وجوهرها هو التدبّر**، الذي يرجع بالإنسان إلى **الفطرة** التي فطر الله الناس عليها، سواء في العقائد، أو العبادات، أو المعاملات، أو الأخلاق والفضائل ؛ ولهذا يمكننا القول أن **للتدبّر** آثارا طيّبة ومتميّزة في **تنمية الفرد والمجتمع**، باعتباره **عبادة** و**منهج حياة**، يساهم في صناعة **التميّز**، وحافز كبير لكسب رهان **التقدّم والرقي الحضاري**، والدفع بالإنسانية لما هو **أفضل وأنفع**؛ ولهذا أمر به الله ﷻ ونبيّه المصطفى ﷺ ، ورغّبا فيه.

والله وليّ التوفيق والهادي إلى سواء السبيل
وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

فهرس المصادر والمراجع:

القرآن الكريم، برواية ورش.

١. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي، دار الفكر، بيروت، ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م.

٢. أمراض القلب وشفاؤها، شيخ الإسلام ابن تيمية، المطبعة السلفية، القاهرة، ط٢،١٣٩٩هـ.

٣. تاج العروس من جواهر القاموس، محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى، الزَّبيدي.

٤. التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور التونسي، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت،ط١، ١٤٢٠هـ ،٢٠٠٠م.

٥. تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المبار كفوري أبو العلا، دار الكتب العلمية، بيروت.

٦. تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي، دار الفكر،(در،دت).

٧. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (المتوفى: ١٣٧٦هـ)، المحقق:عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.

٨. التيسير بشرح الجامع الصغير، الحافظ زين الدين عبد الرؤوف المناوي، مكتبة الإمام الشافعي، الرياض، ط٣، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.

٩. جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري، المحقق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ- ٢٠٠٠م.

١٠. الجامع لأحكام القرآن، للإمام أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، دار الكتب العلمية، بيروت — لبنان، الطبعة عام ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.

١١. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، محمود الألوسي أبو الفضل، دار إحياء التراث العربي-بيروت.

١٢. زاد المعاد في هدي خير العباد، شمس الدين ابن قيم الجوزية، مؤسسة الرسالة، بيروت-مكتبة المنار الإسلامية، الكويت، ط٢٧، ١٤١٥هـ /١٩٩٤م.

١٣. سبل السلام، محمد بن إسماعيل الأمير الكحلاني الصنعاني، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، ط٤، ١٣٧٩هـ-١٩٦٠م.

١٤. السنن الكبرى، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، مجلس دائرة المعارف النظامية الكائنة في الهند ببلدة حيدر آباد، ط١، ١٣٤٤ هـ.

١٥. السنن، ابن ماجه، محمد بن يزيد القزويني، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت.
١٦. السنن، أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر.
١٧. السنن، الترمذي، محمد بن عيسى أبو عيسى السلمي، السنن، أحمد محمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (در، دت).
١٨. السنن، النسائي المجتبى،أبو عبد الرحمن النسائي، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة،ط٢، مكتب المطبوعات الإسلامية، حالب، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م.
١٩. شرح سنن أبي داود، أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن حسين الغيابي الحنفى بدر الدين العينى (المتوفى:٨٥٥هـ)، المحقق:أبو المنذر خالد بن إبراهيم المصري، مكتبة الرشد—الرياض، ط١، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.
٢٠. شرح صحيح البخاري، أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك بن بطال البكري القرطبي، تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم مكتبة الرشد، الرياض، ط٢، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٣م.
٢١. شعب الإيمان، أبو بكر البيهقي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٠هـ.
٢٢. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، إسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق:أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين-بيروت، ط٤، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.
٢٣. صحيح البخاري، تحقيق مصطفى ديب البغا، دار الهدى، الجزائر، ١٩٩٢م.
٢٤. صحيح مسلم، المحقق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (در، دت).
٢٥. الطبعة الثانية ، ١٤٠٣
٢٦. فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني أبو الفضل، دار المعرفة، بيروت، (در، دت).
٢٧. فتح الباري شرح صحيح البخاري، زين الدين أبي الفرج عبد الرحمن ابن شهاب الدين البغدادي ثم الدمشقي الشهير بابن رجب، دار ابن الجوزي— السعودية، الدمام- ١٤٢٢هـ.
٢٨. فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، للإمام محمد بن علي بن محمد الشوكاني المتوفى عام ١٢٥٠هـ، طبعة دار الفكر ودار الكلم الطيب، بيروت—لبنان، الطبعة الأولى عام ١٤١٤هـ-١٩٩٤م.
٢٩. القاموس المحيط، الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، مكتبة النووي، دمشق، (در، دت).
٣٠. لجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي، المحقق: هشام سمير البخاري، دار عالم الكتب، الرياض، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٣م.
٣١. لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، دار صادر—بيروت، ط١، (د ت).

٣٢. مجموع الفتاوى، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، المحقق: أنور الباز–عامر الجزار، دار الوفاء، ط٣، ١٤٢٦هـ–٢٠٠٥م.

٣٣. مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر الرازي، مكتبة لبنان ناشرون–بيروت، ١٤١٥–١٩٩٥م.

٣٤. مختصر قيام الليل، لمحمد بن نصر المروزي

٣٥. المستدرك على الصحيحين، محمد بن عبدالله أبو عبدالله الحاكم النيسابوري، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١١هـ–١٩٩٠م.

٣٦. مسند الإمام أحمد بن حنبل، أحمد بن حنبل أبو عبدالله الشيباني، مؤسسة قرطبة–القاهرة إحياء علوم الدين، محمد بن محمد الغزالي أبو حامد، دار المعرفة، بيروت.

٣٧. مصنف عبد الرزاق، أبو بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني، تحقيق:حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت.

٣٨. المصنف في الأحاديث والآثار للإمام أبي بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي العبسي المتوفى سنة ٢٣٥هـ، ضبطه وصححه محمد بعد السلام شاهين ، مكتبة دار الباز–مكة ، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ – ١٩٩٥م.

٣٩. معالم التنزيل، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، حققه وخرج أحاديثه محمد عبد الله النمر، وعثمان جمعة ضميرية، وسليمان مسلم الحرش، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٤، ١٤١٧ هـ–١٩٩٧م.

٤٠. المعجم الكبير، سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني، مكتبة العلوم والحكم–الموصل، الطبعة الثانية، ١٤٠٤ – ١٩٨٣.

٤١. المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢، ١٣٩٢.

٤٢. موطأ مالك (رواية يحيى الليثي)، إعداد أحمد راتب عرموش، دار النفائس، ط٨، ١٤٠٤هـ.

٤٣. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، للإمام برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي المتوفى سنة ٨٨٥هـ، تخريج عبد الرزاق غالب المهدي، توزيع مكتبة الباز–مكة، ط١، ١٤١٥هـ –١٩٩٥م.

٤٤. النهاية في غريب الحديث والأثر، أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري، تحقيق:طاهر أحمد الزاوى ومحمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية–بيروت،١٣٩٩هـ–١٩٧٩م.